مجلد 10عدد 4 ديسمبر2018 السنة الخامسة ISSN: 1112- 9751 / EISSN: 2602-5337

صورة العثماني في الشعر الجزائري القديم

أ.مباركة مسعودي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة باجي مختار-عنابة
messmeb8@gmail.com

تاريخ الاستلام : 2017-12-30 تاريخ القبول : 2018-05-28

الملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى استجلاء صورة العثماني في الشعر الجزائري القديم، وقد ظهرت العلاقة بين الجزائري والعثماني في النصف الأول من القرن السادس عشر ميلادي، وفرضتها جملة من الظروف السياسية في أول الأمر بعد استعانة الجزائريين بالعثمانيين لرد الهجمات الاسبانية على السواحل الجزائرية لتتوطد بعد ذلك عن طريق التمازج والتزاوج بين العنصرين والذي أنتج عنصرا جديدا لعب دورا كبيرا في ربط العلاقات بين الطرفين، وبرزت صورة العثماني في الشعر الجزائري القديم وتراوحت بين الإيجاب والسلب، وقد كان للأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي عرفها التواجد العثماني في الجزائري دور كبير في تأرجح هذه الصورة.

الكلمات المفتاحية:

الشعر الجزائري القديم؛ صورة العثماني؛ السلطان العثماني؛ المفتي العثماني؛ الحاكم العثماني؛ الجندي العثماني.

Abstract :

This study seeks to clarify the image of the Ottoman in the old Algerian poetry. The relationship between the Algerian and the Ottoman emerged in the first half of the sixteenth century AD and was imposed by a number of political circumstances in the first place after the Algerians used the Ottomans to respond to the Spanish attacks on the Algerian coasts. The mixing and mating between the two elements, which produced a new element played a major role in linking the relations between the parties, and emerged the image of the Ottoman in the poetry of the old Algerian and ranged between positive and negative, has been the political events, I am in Algeria a big role in the swing of this picture.

Keywords:

Old Algerian poetry; Ottoman image; Ottoman Sultan; Ottoman Mufti; Ottoman ruler; Ottoman soldier

توطئة:

تحدد أغلب المراجع التاريخية بداية الحكم العثماني للجزائر في عهد السلطان سليم الأول (1512م-1520م)، وذلك بعد استنجاد أهل مدينة الجزائر بالإخوة بربروس لتحرير المدينة من الاحتلال الإسباني الرابض في صخرة البينيون، لكن المؤرخ أبو القاسم سعد الله يرجع هذه العلاقة إلى قبل ذلك أي إلى أواخر القرن التاسع الهجري وذلك بعد سقوط غرناطة سنة 897هـ، فقد ورد في رحلة بيري رايس وبعض النصوص المحلية، أن العثمانيين كانوا على صلة بأهل المدن الساحلية الجزائرية ولا سيما رجال الدين، يتباحثون معهم لمحاربة العدو المشترك[1]، وكان الاحتلال الإسباني قد استولى على المرسى الكبير(1505م) ووهران(1509م) وبجاية(1512م) وصوب مدافعه على مدينة الجزائر، حتى جاء الأتراك العثمانيون بقيادة

الإخوة بربروس الذين وقفوا في وجه الإسبان وعملوا على تحرير المدن الجزائرية، وقد نجحوا في ذلك فحرروا صخرة البينيون بمدينة الجزائر سنة 1530م، وعنابة في سنة 1540م وبجاية في سنة 1555م، في حين بقي المرسى الكبير ووهران في يد الإسبان حتى فترة متأخرة من التواجد العثماني بالجزائر.

وعرفت الجزائر على مدى ثلاثة قرون من التواجد العثماني بها تقلبات سياسية واقتصادية طبعت بنتائجها على الحياة الاجتماعية والأدبية، لكن ما يهمنا هنا هو دراسة: كيف صور الشعر الجزائري القديم العثماني؟ ويعد البحث عن تشكل صورة العثماني في الشعر الجزائري القديم موضوعا خصبا، فالمهم هنا "هو إبراز صورة الشعوب بعضها عن بعض، مهما كانت نوعية تلك الصور التي قد تكون جميلة، وقد تكون قبيحة، وقد تكون واقعية، وقد تكون خيالية، فالذي يعنينا هو وصول الدارس إلى تحديد صورة الشعب المؤثر في أدب الشعب المتأثر مع توضيح كيفية رسمها"[2]، تسعى هذه الدراسة إلى رصد صورة العثماني في الشعر الجزائري القديم وتهدف إلى توضيح الصورة التي قدمها الشعر الجزائري لحياة العثماني وبيان الملامح العامة لعلاقتهم بالجزائريين والكشف عن أخلاقهم وصفاتهم كما تناولها الشعراء.

ولقد حظيت دراسة صورة الآخر في الأدب الجزائري وعلى الخصوص صورة الفرنسي بدراسات عدة، وهناك الكثير من الدراسات التي تشهد بذلك، لكن صورة العثماني لم نجد فيما اطلعنا عليه دراسات مخصصة، وعليه فنحن لا نعرف شيئا عن تمثيلها في الشعر الجزائري القديم، قبل البدء في هذه الدراسة نود أن نبيّن أولا ما المقصود بعلم الصورة؟

الصورولوجيا:

علم الصورة أو(imagologie) أحد حقول الدراسات المقارنة والتي تهتم بمعرفة صورة شعب لدى شعب آخر مختلف عنه، وتعد دراسة الصورة من مجالات البحث المفضلة لدى رواد المدرسة الفرنسية، وهي تعني"فعل ثقافة وممارسة إنسانية(متعلقة بالإنسان) للتعبير عن الهوية والغيرية في الوقت نفسه"[3]، وهذا النوع من الدراسات "يعتمد أساسا على حقيقة معروفة هي "التأثير والتأثر" الحاصلة بين شقي الموضوع شريطة ألا يكون الموضوع في إطار لغوي واحد"[4]، أي هو يركز على الآخر باعتباره مخالفا للأنا، فكل "صورة هي ترجمة للآخر"[5]، ويعد البحث في صور الشعوب من أكثر البحوث اهتماما في الأدب المقارن، فقد قدم "جورج أسكولي George Ascoli" سنة 1930م أطروحة بعنوان: "بريطانيا العظمى أمام الرأي الفرنسي خلال القرن السابع عشر"، ثم ظهرت جهود "جان ماري كاري J.M.Carré" و"ميشال كادو Michel Cadot" الذي قدم سنة 1967م أطروحة بعنوان: "صورة روسيا في الحياة الفكرية الفرنسية من 1839م إلى 1856م"[6]، وتتداخل الدراسات من هذا النوع مع دراسات أخرى مثل "البحوث التي يقوم بها علماء السلالات البشرية، وعلماء الإنسانيات، ومؤرخو العقليات والحساسيات، الذين يطرحون مسائل حول ثقافة الآخر، والمثاقفة، والتنافر الثقافي والاستلاب الثقافي، والرأي العام أو الخيال الاجتماعي"[7]، لكن إعادة تشكيل صورة الآخر أدبيا لا يبحث عن مدى صدق هذه الصور أو كونها مبالغ فيها أي مطابقتها

للواقع بقدر تركيزه عن تفاعل الأنا مع الآخر المضاد للذات والذي فرضت جملة من الظروف على أن يكون هناك علاقات بين الطرفين.

وتنشأ العلاقات بين الشعوب إما بالمجاورة أو بتقاطع الظروف والمصالح، فالشعوب "لا تهتم إلا بالشعوب المجاورة لها أو التي تشترك معها في مسألة، أو أن يكون لها معها مصالح اقتصادية، أو تريد كسب ودها أو تخشى بأسها"[8]، وتتكون في ذهنية شعب ما أفكار عن شعب آخر تجعله يكون فكرة أو نظرة عنه، حيث "ترسخ في عقلية شعب معلومات عن شعب آخر قد تكون صحيحة أو خاطئة وتظهر هذه المعلومات في الأدب الذي يعتبر سجلا صادقا لشعور شعب معين، وصورة ثابتة للعلاقات التي تربطه بغيره"[9]، ويرصد هذا النوع من البحوث تجلي الآخر الأجنبي في أدب الذات، أو تجلي الذات في أدب الآخر الأجنبي.

وحتى تتحقق المقارنة أي مقارنة صورة شعب معين في أدب شعب آخر أو صورة شعب معين في جنس أدبي لدى شعب آخر، وجب تحقق شرط أساسي هو أن يكونا من موطنين ولغتين مختلفتين، حيث "يستدعي مفهوم الصورة تعريفا أو على الأصح فرضية عمل يمكن أن تصاغ على الشكل التالي: كل صورة تنبثق عن إحساس، مهما كان ضئيلا (بالأنا) بالمقارنة مع الآخر، (وبهنا) بالمقارنة مع مكان آخر. الصورة هي إذن تعبير، أدبي أو غير أدبي عن انزياح ذي مغزى بين منظومتين من الواقع الثقافي"[10]، فالصورة إذن تتأتى من انطباع ما أو إحساس بالأنا مقارنة بالآخر، وبهنا مقارنة بهناك، فصورة الآخر لدينا ما هي في حقيقة الأمر إلا صورة عن ذواتنا، كما أن الصورة التي نتخيلها عن أنفسنا ليست بعيدة عن صورة الآخر لدينا.

إن شيوع الصور النمطية عن الآخر قد أدت إلى نوع من سوء التفاهم بين الشعوب، خاصة بعدما تكررت بعض المفاهيم التي تداولتها الشعوب كثنائيات القوة والضعف والتقدم والتخلف، والأبيض والأسود، التي كرست نوعا من العنصرية التي زادت من الهوة الثقافية بين الشعوب وأدت إلى اختلال عناصر الثقافة بينها، على عكس ما تسعى إليه الدراسات الحديثة التي تهدف إلى الانفتاح على الآخر وإزالة الغموض وسوء الفهم معه، لأن "الصورة التي تقدمها الآداب القومية للشعوب الأخرى تشكل مصدراً أساسياً من مصادر سوء التفاهم بين الأمم، والدول، والثقافات، سواء كان هذا إيجابياً أم سلبياً، ونعني بسوء الفهم السلبي ذلك النوع الناجم عن الصورة العدائية التي يقدمها أدب قومي ما عن شعب آخر، أو شعوب أخرى"[11]، ويهدف هذا التوجه من البحوث المقارنة إلى إزالة الأوهام وتنقية الرؤى التي تحملها الشعوب عن بعضها البعض، وتوضيح الحقائق لدى بعضها البعض لإقامة علاقات أكثر قوة ومتانة.

وإذا عدنا إلى صورة العثماني في الشعر الجزائري القديم نجد أنها لا تخرج عن أربعة نماذج أساسية وهي السلطان العثماني باعتباره أميرا للمؤمنين وخليفة للمسلمين، والمفتي العثماني إذ تكررت الكثير من النصوص التي استحضرت صورة شيخ الإسلام باعتباره الواسطة بين الشعب والسلطان خاصة أن أكثر القصائد التي تناولت شيخ الإسلام كانت بعد الوفود إليه إلى إسطنبول لطرح شكوى أو لتباحث أمر مهم، وتحضر كذلك صورة الحاكم العثماني في الجزائر باعتباره القائم بأمر الدولة العثمانية والحاكم بقوانينها

وقد كان احتكاكه واتصاله بالجزائري أكثر تأثيرا من غيره، وتبرز أخيرا صورة الجندي العثماني التي ارتبطت أكثرها بحروب تحرير وهران.

1-صورة السلطان العثماني

ارتبطت إمارة آل عثمان باسم مؤسسها عثمان بك الذي تسمت الإمارة باسمه، واكتسب صفة زعيم الجهاد فقد قاد غزوات جهادية على الأراضي البيزنطية ودخل مرحلة تأسيس إمارته المستقلة[12] وتتفق المصادر التاريخية العثمانية على نسبة شخصية عثمان بك كشخصية تاريخية إلى إحدى قبائل "الغُزّ" (oguz) التركمانية، وهي قبيلة "قايي"[13]، ودامت سلالة آل عثمان ستة قرون ميلادية من عام 1299م إلى عام 1922م بلغ عدد سلاطينها ستة وثلاثون(36) سلطانا.

وبرزت صورة السلطان العثماني في الشعر الجزائري القديم وارتبطت بطريقة اتصال الشاعر بالسلطان، سواء بوفوده عليه أو استحضاره في خضم التحريض على استرجاع وهران من الاحتلال الإسباني، وقد قدم الشاعر الجزائري صورة السلطان العثماني في عدد من النصوص بوصفه خليفة للمسلمين والقائم بشؤونهم، والساعي لتحقيق العدل والمساواة بين الناس، ويستحضر الشاعر الشيخ القوجيلي صورة السلطان العثماني محمد خان الرابع (1648-1687) في معرض شكواه لمفتي القسطنطينية أسعد أفندي زادة المعروف بأبي سعيد محمد أفندي، فقد توجه القوجيلي على رأس وفد جزائري إلى إسطنبول سنة 1065هـ(1655م)، في مهمة لتولية يوسف باشا بدلا من منافسيه بعد المنازعات على السلطة التي وقعت في عهده وأدت إلى صراع على السلطة بين الانكشاريين ورياس البحر[14]، خاطب القوجيلي مفتي القسطنطينية يستأذنه في الدخول عليه:

وإنَّـــا أنـــاس مـــن جزائرنـــا التـــي ... أنســـــنا بهـــــا دهـــــرا وقـــــد.....[15]
ديـــار بـــأرض الغـــرب شـــاع جهادهـــا ... على مـدن الكفـار قـد أظلمـت خزيـا
مـدى الـدهر للخنكـار[16] تـدعو بنصـره ... ومـــن غيثـــه الوَسْـــمِيّ نلـــتمس الريـــا
تنـــاءت ومـــا كـــان التنـــائي اختيارنـــا ... ولكـن خطـوب الـدهر قـد أوجبـت نأيـا
أتينـــا لإنهـــاء الـــذي قـــد أصـــابنا ... إلى الملـك الخنكـار مَـنْ عَدْلُـهُ أحيـا
همـــام يســـوس العـــالمين بلحظـــه ... وفيـــاض مـــال الله يحثـــو بـــه حثيـــا
ولا عيـــب للمضـــطر إن جـــاء شـــاكياً ... إلى ملـك الإسـلام يطـوي الفَضَـا طيـا[17]

يقدم الشاعر نفسه والوفد الذي جاء معه فهم من أرض الجزائر المعروفة بجهادها البحري في البحر الأبيض المتوسط، ويظهر السلطان العثماني عادلا، كريما، جوادا، كما أنه عظيم الهِمَّة ومقدام، شجاع وسخيٌّ وهو معطاء فكثيرا ما يتصدق من ماله، لذلك فلا عيب إن توجه إليه صاحب شكوى أو حاجة لأنه أمير المؤمنين وخليفتهم.

ويشير الشاعر إلى حالة التباعد التي فرضتها الظروف السياسية بين الجزائر ومركز الخلافة بعد محاولات اليولداش (الإنكشارية) الاستئثار بالحكم وصراعها الدائم مع طبقة رياس البحر التي كانت تتمتع بالحكم

وتستفيد من امتيازاته المالية والسياسية، خاصة بعد الانقلاب العسكري الذي قادته الانكشارية سنة 1601م في ولاية سليمان باشا بن قاطانيا ومحاولتهم الاستئثار بالحكم بتعيين رئيس للحكومة من بينهم وتراجع سطوة السلطان العثماني في الجزائر بعد هذا، وتظهر صورة الخليفة قائد المسلمين التي رسمها الشاعر للسلطان محمد الرابع، لتدل على استمرار الارتباط الروحي والوجداني بين إيالة الجزائر واسطنبول وتدلنا على درجة ارتباط الجزائري بالسلطان العثماني لذلك توجه الوفد الجزائري إلى مركز الخلافة طلبا لحل قضيتهم وتعيين يوسف باشا على رأس الإيالة، وتظهر القصيدة حالة الوفد ورغبة علماء الجزائر في استمرار ارتباطهم بالدولة العثمانية وسعيهم إلى الاحتكام بأوامر سلطانها.

وقد عمل العثمانيون في الجزائر على تحرير المدن الجزائرية من الاحتلال الإسباني وخاصة وهران والمرسى الكبير، وتتردد صورة السلطان العثماني كثيرا عند الشاعر الجزائري في مستهل حديثه عن معارك التحرير، فقد قال أبو عبد الله سيدي محمد التغريزي في رجزه عن فتح وهران الأول عام 1708م والذي تم في عهد السلطان العثماني أحمد خان الثالث (1703-1730م):

الحمد لله الذي فتحا ... وهران عن أيدي الرجال الصلحا
في مدة السلطان فخر الناس ... أحمد خاقان أبي العباس
من ملك البرين والبحرين ... ومصر والشام بدون مين
وخادم الحرمين طول المدى ... دام انتصاره على جمع العدا[18]

برزت صورة السلطان أحمد خان الثالث بوصفه سلطان البرين والبحرين وخادم الحرمين في إشارة إلى اللقب الذي اتخذه العثمانيون لأنفسهم أي لقب "سلطان البرين والبحرين" أي البر الآسيوي والأوروبي، والبحر المتوسط والبحر الأسود، كما استعمل العثمانيين لقب الخليفة منذ القرن السادس عشر ميلادي بعد أن أطلق السلطان سليم الأول على نفسه لقب "خليفة الله في طول الأرض وعرضها"[19]، وفي هذا إشارة إلى عظمة هذا السلطان العثماني الذي ملك البرين والبحرين وملك الشام ومصر والحجاز، ويربط الشاعر بين تحرير وهران وفترة حكم السلطان أحمد الثالث الأمر الذي يحيلنا إلى المكانة التي كان يحظى بها السلطان العثماني في قلوب المسلمين كافة والجزائريين خاصة لما كان له من سلطة معنوية عليهم فهو خليفة المسلمين وقائد الجهاد ضد الكفار.

ويظهر السلطان العثماني عبد المجيد في القصيدة التي كتبها الأمير عبد القادر الجزائري بعدما خرج من السجن، وتوجه في أول الأمر إلى حاضرة الخلافة الإسلامية في حماية السلطان عبد المجيد الذي وصفه بخليفة المسلمين وسندهم، وممثلا للدين الإسلامي وحامي حمى الدين وكتب الأمير عبد القادر يمدح السلطان عبد المجيد على حسن ضيافته وكرمه معه، وقد أحس بالأمن والأمان في حضرته، ويصفه بأمير المؤمنين وقائدهم الذي يتولى قيادة المسلمين وتطبيق أحكام الإسلام وتنفيذها:

أسكن فؤادي وقر الآن في جسدي ... فقد وصلت بحزب الله أحبالا
وعش هنيئا فأنت اليوم آمن من ... حمام مكة إحراما وإحلالا

أبشـــر بقـــرب أميـــر المـــؤمنين ومـــن قـــد أكمـــل الله فيـــه الـــدنيا إكمـــالا
كهـــف الخلافـــة كافيهـــا وكافلهـــا ومـــا عهـــدنا لـــه فـــي القـــرن أمثـــالا[20]

فالسلطان عبد المجيد هو خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من يتولى قيادة الإسلام والمسلمين بتطبيق أحكام الإسلام والدعوة إلى الجهاد، لذلك يصفه الأمير بحامي الدين وخليفة رسول الله.

لم تخرج صورة السلطان العثماني في الشعر الجزائري القديم عن كونه خليفة المسلمين، وحامي حمى الإسلام وهو المجاهد الذي يبذل الأموال لتحرير الثغور الإسلامية، وهو ينحدر من سلالة كريمة خصها الله عز وجل بفضل فتح القسطنطينية.

2-صورة المفتي العثماني:

جاء في قانون الدولة العثمانية الذي وضع في عهد محمد الفاتح قرارات بالألقاب والمخاطبات المتعلقة بشيخ الإسلام في الفرمانات والكتب الرسمية والمدونات وهي "حكيم العلماء العارفين وفضيل الأفاضل المتعففين، نبع الفضيلة والمعرفة الحقة، وريث علم الأنبياء ورسل السماء، شارح العقائد الدينية، وسيط الخير المحكَّم، شارح تفاصيل المسائل الدقيقة، حلال صعوبات العلوم الحدسية والتأملية، شيخ الإسلام والمؤمنين مفتي الشعوب المؤمنة حق الإيمان"[21]، ويدلنا ذلك على المكانة العظيمة التي كان يحظى بها شيخ الإسلام في الدولة العثمانية، فهو شارح العقيدة ومبسطها للمؤمنين والحاكم بينهم بكلام الله، وتراوحت مدة خدمته ما بين السنتين والخمس سنوات، وقد سنت الكثير من المراسيم عند تعيين شيخ الإسلام، منها أن يقبل يد السلطان مرتين الأولى عندما يصل السلطان إلى الحديقة أمام الديوان والثانية في الجلسة وأثناء هذه الجلسة يهدى له فرو آخر[22]، وكان دائما حنفي المذهب، ولكن إذا حدث أن طلب المدعي أو المدعى عليه النظر في دعواه بأحكام أحد المذاهب الفقهية الثلاثة الأخرى، كان مضطرا لتلبية هذا الطلب، وكان شيخ الإسلام في النظام العثماني موظفا كبيرا في الدولة وهو الموظف الثاني بعد الصدر الأعظم[23] يبدو أنه كان لهذه الوظيفة مكانة مهمة في الدولة العثمانية فكثيرا ما كان شيخ الإسلام مقربا من السلطان ومبجلا بين أفراد حاشيته.

وبرزت صورة المفتي العثماني في الشعر الجزائري القديم وتراوحت بين السلب والإيجاب، وذلك حسب مكانة المفتي وصلته بالجزائري، ففي حين حظي شيخ الإسلام أو المفتي العام للدولة العثمانية باحترام وتقدير وإجلال، باعتباره الممثل الروحي للسلطان-خاصة أن طريقة اتصال الجزائري به كانت عبر الوفود عليه إلى إسطنبول لعرض شكوى أو بحث أمر مهم- قُدمت صورة المفتي العثماني المكلف بالإفتاء في الجزائر في صورة قاتمة وذلك بسبب المواجهة وتعارض المصالح بينه وبين الجزائري في كثير من الأحيان.

يذكر عبد الكريم الفكون في مخطوطه (محدد السنان في نحور إخوان الدخان) الذي ألفه سنة 1627م رحلة قام بها علماء الجزائر إلى القسطنطينية بقيادة مفتي الجزائر أبو الربيع سليمان الأوراري في مهمة كلفهم بها جيش الجزائر[24]، وقد اجتمع سليمان الأوراري بمفتي إسطنبول أو شيخ الإسلام محمد بن سعد الدين[25] وسأله عن رأيه في الدخان حلال أم حرام، ويمكننا تحديد تاريخ هذا الوفد بالرجوع إلى فترة حكم

المفتي محمد بن سعد الدين (1598-1599م)، وقد تقدم سليمان الأورارى إلى المفتي بأبيات شعرية تصف علمه وعدله فهو لم يبلغ مرتبة الفتيا ولا جاد فيها لولا اتصافه بالعلم والصدق:

أيـــا مـــن بـــات فـــي رتـــب المعـــالي ... رئيســـــاً حـــــائزاً غـــــرر الكمـــــال
ويـــــا بـــــدر المعـــــارف والعلـــــوم ... ويـــــا بحـــــر العـــــوارف والنـــــوال
ومـــن قـــد صـــار في المعقـــول صـــدراً ... وفـــــي المنقـــــول قطبـــــاً للرجـــــال
فمـــــن يمنـــــاك نقتـــــبس المعـــــاني ... ومـــــن عليـــــاك نلـــــتمس المعـــــالي[26]

وكتب أحمد المانجلاتي قصيدة إلى شيخ الإسلام أسعد أفندي[27] طالبا منه النظر في قضية نفي المفتي سعيد قدورة إلى إسطنبول، بعد أن أبعده عسكر الجزائر طالبا منه المثول أمام مفتي إسطنبول، يقول فيها:

سِـــرْبَ القطـــا سِـــرْ بالســـلام وأسْـــعدِ ... وانهـــض إلـــى قمـــر الســـعادة أسْـــعَد
مفتـــي البســـيطة شمســـها وهلالهـــا ... وإمامهـــــا وهمامهـــــا والمهتـــــدي
وســـليل ســـادات كـــرام رَفَّعَـــتْ ... أقلامُهـــــم أقـــــدامهم بالســـــؤدد
أقمـــار قســـطنطينة العظمـــى التـــي ... خضـعت لهـا العظمـا خضـوع السُّجَّد
يـــا نخبـــة العلمـــاء يـــا شـــمس الضـــحى ... يـــا فصـــلَ أصْـــلٍ مثلـــه لـــم يُوجَـــد
لا زلـــت فـــي العلمـــا ســـراجا ســـاطعا ... تفـــتض أبكـــارَ المعـــاني الشُّـــرَّدِ[28]

يظهر شيخ الإسلام أسعد أفندي في هذه القصيدة عالما متمكنا تقصده الوفود من مشارق الأرض ومغاربها لعدله وسماحته وقوته بين علماء عصره ولتفرده من بينهم بعلمه ودقة فحصه للمسائل وقدرته على حلها والإفاضة فيها، وذلك ما خوله مكانة عظمى في دار الخلافة كغيره من مشايخ الإسلام الذين كان لهم احترام وتقدير لدى السلاطين العثمانيين، وهو بأخلاقه وعدله وذكائه في حل أصعب المسائل كالسراج الساطع وسط غيره من العلماء، وتدلنا هذه القصيدة عن نظرة التقدير التي كان يحملها الشاعر الجزائري لمكانة شيخ الإسلام في إسطنبول، فهو مرضي السيرة، عدل في أقواله وأفعاله وهو الموكل من قبل السلطان لحل مشاكل الرعية فهو الواسطة بين السلطان ورعيته.

وتطالعنا صورة شيخ الإسلام أسعد أفندي زادة المعروف بأبي سعيد أفندي[29] في قصيدة الشيخ القوجيلي الذي توجه على رأس وفد جزائري إلى إسطنبول سنة 1065هـ طالبين تدخل الباب العالي في تعيين يوسف باشا على الجزائر، فلما بلغ الشيخ القسطنطينية خاطب مفتيها يستأذنه في الدخول عليه:

ولمـــا دخلنـــا حضـــرة الملـــك عُمِّـــرتْ ... بـــإعلاء ديـــن الله تفـــري العِـــدَا فريـــا
قصـــدنا إمامـــاً طـــائراً صـــيته أبـــو ... ســـعيد وحيـــد العصـــر مـــن قلـــد الفتيـــا
تفـــرد فـــي ذا العصـــر عِلمـــاً ورفعـــة ... وقـــد قبلـــوا مـــن قولـــه الأمـــر والنهيـــا
فلمـــا رأينـــا النـــاسَ مـــن كـــل جانـــب ... تـــؤمكمُ تســـعى إلـــى بـــابكم ســـعيا
أتينـــاكم ســـاعين مـــع وصـــف غربـــة ... وذو غربـــة مَيْـــتٌ وإن عُـــدّ فـــي الأحيـــا

فكــن عوننــا عنــد الخليفــة وامْضِــيَنْ بنــا بــين أيــدينا لحضــرته العليــا[30]

يبدو أن شهرة وصيت شيخ الإسلام أسعد أفندي قد سبقته إلى أقصى الغرب، فهو صاحب علم ومعرفة خولته إلى تقلد الفتيا، فكلامه مسموع وفتواه مقبولة لدى المسلمين كافة ووفود المسلمين تتقاطر عليه لشهرته وعدله، فهو متفرد في عصره بعلمه وصيته الذي سبقه إلى بقاع الدنيا، ثم وصف الشاعر حالة الوفد وغربته وهو الذي جاء من أقصى الغرب طالبا من المفتي أن يسعى بالوفد لمقابلة السلطان وعرض شكواه.

ومن صورة مفتي الدولة العثمانية والتي لم تخرج عن كونه عالما ملما بالفتيا عدلا تؤمه الخلائق من بقاع الدنيا لعرض شكواها، برزت صورة المفتي العثماني في الجزائر في صورة قاتمة فهو ظالم يصدر الفتاوى الجائرة لكسب ود أسياده من الباشاوات، وفي ذلك كتب الشاعر سعيد بن عبد الله المنداسي قصيدة في مثالب أتراك تلمسان وفي المفتي ابن زاغو الذي أفتى "لأمير تلمسان في الشدة على أهلها، فقتل كثيرا منهم، وهدم مبانيهم، وسبى نساءهم وذراريهم، وأذن للجند فعاثوا فيها فسادا"[31]، وقد شهد المنداسي هذه المذبحة التي وقعت على عهد الحاكم عثمان باشا(1060هـ)، وهاجر بعدها إلى المغرب وتأثر المنداسي بالواقعة فكتب قصيدته المعروفة بالنونية، يصف الأتراك بالمفسدين الذين عاثوا في تلمسان ظلما وجورا بمساعدة المفتي ابن زاغو الذي وصفه بقرين السوء الذي يطبق أحكام الأتراك ويعينهم على الظلم:

وأكبــر شــيء أفســدته أكفهــم تلمســان عــين الغــرب علمــا وإيمانــا
وكانــت لهــم لمــا أرادوا فســادا أراذل منهــا كالبطــارق أعوانــا
فمــنهم قــرين السُّــوء مفتــي بلادهــم تــود العبــاد التــرك كــانوا ولا كانــا
فقــل لابــن زاغــو للضــلال أيمــة تــدبر لحــاك الله مــا قــال مولانــا
فــإنّ أميــر التــرك فرعــون قــائم وأنــت جلــيس الســوء فــي زي هامانــا
فأنــت لســان التــرك والســيف لافــظ تســر ويمضــي السّــيف قولــك إعلانــا
لقــد كنــت حبــرا بالمدينــة صــالحا فصــرت بهــا أخــا القــرامط حمــدانا[32]

شبه الحاكم العثماني بفرعون وابن زاغو بوزيره المقرب لحاشيته هامان الذي أعان فرعون على ظلمه وجوره، وقد ورد في القرآن ذكر لفرعون ووزيره هامان وجنودهما وقد عاثوا في الأرض فسادا يستضعفون الناس ويذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم، ويصف ابن زاغو بالسكير الظالم وبلسان الترك الناطق عن هواهم، وشبهه بحمدان قرمط زعيم القرامطة الذي كان يحل لهم الكبائر من سفك الدماء ونهب الأموال وانتهاك الأعراض، ويرسم المنداسي في هذه الأبيات صورة منفرة للعثمانيين وللمفتي ابن زاغو، فيصور ظلمهم وحبهم للمال، واستئثارهم بالسلطة، فقد حكموا كفئة مميزة واحتكروا السلطة واستبعدوا السكان من الحكم، لذلك لجئوا إلى العنف القسوة للحفاظ على مناصبهم.

تراوحت صورة المفتي العثماني في الشعر الجزائري القديم بين مظهرين أولهما بوصفه شيخا للإسلام ومفتي الدولة العلية الذي اتصف بالعدل والحكمة وسعة العلم وثانيهما المفتي العثماني في الجزائر والذي

اتصف بالجشع والظلم وقد أعان أصحاب الحكم على تطبيق أحكامهم الجائرة على الأهالي بفتاويه الظالمة.

3-صورة الحاكم العثماني:

ونقصد بالحاكم العثماني كل من كان قائما بأمر الدولة العثمانية في الجزائر من باشاوات ودايات وبايات، وكان لحضوره صدى في الشعر الجزائري القديم، وتفاوتت صورته حسب علاقاته مع الجزائري ودرجة احتكاكه به، واختلفت تبعا لحالة السلم والحرب، أو التوافق والتنافر، وقد شهد التواجد العثماني بالجزائر حروبا عدة بين المسلمين بقيادة العثمانيين والصليبين وعلى رأسهم الإسبان وغيرهم من الدول والممالك الأوروبية التي قادت العديد من الحملات البحرية على الجزائر، وقد واكب الشعراء الجزائريين انتصارات العثمانيين في الجزائر وخارجها، كما أشادوا بالحكام العثمانيين الذين قادوا حروب التحرير مثل حسن بن خير الدين بربروس ومحمد بكداش باشا ومحمد بن عثمان الكردي باي الإيالة الغربية، ونقلوا لنا دور العثمانيين في هذه الحروب وجهودهم المبذولة من أجل تحرير المدن الجزائرية من العدو الصليبي، كما أدى ظلم وجور بعض الحكام إلى اشتداد الصراع بينهم وبين الرعية خاصة أولئك الذين استغلوا مناصبهم لخدمة أغراضهم الخاصة.

تطالعنا صورة الحاكم العثماني في الجزائر في قصيدة سيدي محمد التواتي الذي كتبها في فترة مبكرة من التواجد العثماني بالجزائر، وفيها يحذر سكان وهران من خطر الأسبان واستبدادهم بعد سقوط الأندلس "لما رأى من كثرة فسادهم، وتقاعدهم عن حفظ بلادهم، ينهاهم عن ذلك ويأمرهم باستقدام الترك إلى بلادهم، لما تفرس فيهم من الحزم، وسمع عنهم من القيام بالجهاد والحرص على هتك حرم الكفرة، ومنعهم الأرض التي بأيديهم من توثبهم عليها"[33] وقد جاءت هذه الاستغاثة بعد استقرار الأخوين عروج بمدينة الجزائر وانشغالهم بالجهاد البحري وإنقاذ أهل الأندلس وجلبهم إلى السواحل الجزائرية، وكذلك بعد "اتصال بعض الأمراء بالعدو، اجتمع علماء الدين ونادوا بالجهاد والاعتماد على النفس وإحياء الرباطات"[34] ورغم الأسلوب المهلهل للقصيدة وكثرة الأخطاء اللغوية بها إلا أنها نقلت لنا حقيقة تاريخية عن نظرة الجزائريين في تلك الفترة من الزمن إلى العثمانيين وهي تدلنا على التفاف العلماء نحو الأتراك ورغبتهم في الاحتكام تحت لواء الدولة العثمانية، ويؤكد على أن دخول العثمانيين إلى الجزائر كان برضى ورغبة سكانها، وبتشجيع من علمائها وأعيانها، يقول منبها أهل وهران إلى تدارك أمرهم قبل أن تنزل بهم الجيوش الإسبانية، ناصحا إياهم بالاستعانة بالأتراك حكام الجزيرة قاصدا بها مدينة الجزائر واصفا إياهم بالشداد الذين فتكوا بالكفار لما لهم من خبرة في الحرب والجهاد:

ولا يحمي مرساكم ضعاف رجالكم ... ولا البدو بل تحميه أهل الجزيرة
فإن لهم بالطعن والضرب خبرة ... وكم فتكوا بالكفر أكبر فتكة
فلم يعبأوا مهمى(كذا) رأوهم بكثرة ... ولم يشتكوا مهمى(كذا) لقوهم بقلة
فلا أنكى للكفار منهم وأنهم ... لنصرة دين الله أعظم نصرة

عليكم بهم فاستعملوا في وصولهم إليكم ذكي عقل وألطف حيلة[35]

وبعد تأسيس إيالة الجزائر وتثبيت أصول الحكم العثماني بها حاول كثير من الولاة العثمانيين تحرير مدينة وهران التي بقيت ترزخ تحت نير الاستعمار الإسباني، وقاد العديد من الحكام العثمانيين حملات لتحرير وهران كان من أهمها حملة محمد باكداش قائد التحرير الأول لوهران وحملة باي الغرب محمد بن عثمان الكردي والتي توجت بالتحرير الثاني والنهائي لوهران، وقد خلد الشاعر الجزائري صورة هاذين البطلين المجاهدين في أكثر من قصيدة، كتب محمد المستغانيمي قصيدة أسماها "الكوكب النائر في مدح أمير الجزائر" وصف الداي محمد بكداش فيها بالأمير العادل الحاكم بأمر الله، وقد عرف عن باكداش حبه للعلم وتقريبه للعلماء وسعيه لإحياء الجهاد وتحرير الثغور:

إمام عدل حماه الرب حيث غدا معتصما صابرا لله منتصر
فقد أتى واحدا في عصرنا رافعا لراية العلم والشرع القويم حري
أيامكم أقبلت ودولة سعدت ورحمة وسعت في البدو والحضر
بحاكم فاضل وعالم عامل أحيا الحنيفية السمحاء كالمطر[36]

وصور ابن سحنون الراشدي الباي محمد بن عثمان الكردي قائد الفتح الثاني لوهران بوصفه نموذجا للقائد الشجاع الذي قاد الجهاد وأحياه بعد أن خبا في القلوب وأشاد بشجاعته وإقدامه في الحروب:

خاض الحروب فراضها وأقامها زمنا فليس يؤوده الإقدام
كم كتائب فلها، وعساكر زلت بها من خوفه الأقدام
بشراك يا أسد الحروب بعزة ما إن تقوم بحقها الأقلام
أحييت بالغرب الجهاد وقد عفا والناس عن إحيائه قد ناموا
ووثبت للأعداء وثبة باسل خضعت له الرؤوس والأعلام[37]

لم تخرج صورة الحاكمين محمد باكداش باشا ومحمد بن عثمان الكردي عن دائرة البطولة وتنظيم الصفوف والجهاد في سبيل الله، فقد ترسخت سيرتهما دون غيرهما من الولاة بعد الفتح المبين لوهران وطرد الإسبان منها.

وتبرز الصورة السلبية للحاكم العثماني في قصيدة المنداسي التي كتبها في مثالب أتراك تلمسان حيث اتهمهم مع من والهم من العلماء بتهم شنيعة، وينظر المنداسي إلى العثمانيين نظرة سلبية عدائية ويصمهم بصفات الجشع والظلم وأكل مال الحرام والتناسل من الزنا:

أمن قادر بالله يحمي تلمسانا فإنّ بها من قوم يأجوج إخوانا
بنى السد ذو القرنين للنّاس رحمة فيا ليته من شوكة الترك هنانا
سمعنا حديثا صادق النقل ربه بأنّ لجنس الترك في الأرض إخوانا
ولكن وراء السد عَمَّ فسادهم وهم أفسدوا في الغرب كفرا تلمسانا
فما دبّ فوق الأرض كالترك مجرم ولا ولدت حواء كالترك إنسانا

ولا طـــار مثـــل التـــرك للســـمع طـــارق ولا وجـــد الشـــيطان كـــالترك فتانـــا
عتـــوا واســـتفزوا المســـلمين مـــن القـــرى وقـــد عبـــدوا حمـــرا الـــدنانير أوثانـــا
كأكـــل الرِّبـــا مـــن الســـفاح تناســـلوا فـــلا مـــارد إلا ويتـــرك شـــيطانا[38]

ويبدو أن سياسة بعض الولاة العثمانيين قد عمدت إلى الحفاظ على الحكم بأي وسيلة كانت، فقد اتجهت إلى العنف ومحاولة السيطرة على البلاد بالقضاء على كل ما يقف في طريق هذا الهدف، وأشار الزياني لجور وظلم بعض الولاة العثمانيين في قوله: "وكانت السياسة التي يسلكونها في حكم البلاد قد أثارت سخط العلماء حيث كانوا يحذرونهم من أخطار عواقب هذه السياسة فنصحوهم بالعدل والالتفات إلى مصالح الرعية والقيام بها"[39]، وفي تلمسان كثر جورهم واستبدادهم حتى ثار عليهم الكثير من المرابطين والعلماء، فكتب الشاعر ابن مسايب التلمساني واصفا ولاتها العثمانيين بالظلم والفساد وقد أثقلوا كاهل الشعب وشددوا الوطأة عليه بزيادة الضرائب، مستعملين في ذلك كل الوسائل لتوفير أموال الدنوش لباشا العاصمة:

همـــا ســـباب كـــل مشـــقة والخلـــق صـــابرة لـــبلاهم
طلقـــوا الـــبلاد هـــذا الطلقـــة ســـابت وهمّهـــا يـــركبهم
وإذا تكسّـــرت واشْ بْقـــى غرقـــوا أولادهـــم ونْســـاهُم
ذا القـــوم مـــا معـــاهم شـــفقة مـــا يَرَفْقـــوا بمـــن والاهـــم
الأيَّـــام ســـاعْدتْهُم والوقـــت حْماهـــا وتناصـــروا علـــى الإثـــم والعـــدوان
خربـــوا الـــبْلاَدْ والمَخْـــزَن زاد عْماهـــا الأسْـــواق خاليـــة والباطـــل رنّـــانْ[40]

وفي سياق العظة والعبرة كتب مسلم بن عبد القادر الوهراني في رجزه واصفا حال الأتراك عند مغادرة الجزائر في قصيدة تحكي عن احتلال الجزائر، وبالرغم من الأسلوب المهلهل للمنظومة إلا أن لها قيمة تاريخية، ذلك أن صاحبها شاهد عيان على العهد التركي بالجزائر[41]، يقول واصفا حال الأتراك عند ترحيلهم من الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي ويظهر الأتراك والحاكم حسين داي في صورة مهينة مذلة فقد سلبت منهم أملاكهم وأموالهم وأسلحتهم ولم يعد لهم قوة ولا سلطان، فشتان ما بين الأمس واليوم، ويرجع الشاعر تقلب أحوال الأتراك إلى انشغالهم بالظلم والفساد:

فاركـــب الأتـــراك فـــي أســـطوله جمـــيعهم والباشـــا فـــي أكبالـــه
أســـبلهم مـــن ملكهـــم وذلهـــم بعـــد العصـــيان والطغيـــان فلهـــم
أمـــوالهم أخـــذها والأســـلحة قـــص لهـــم أريـــاش الأجنحـــة
أدبهـــم ربهـــم لمـــا طغـــوا عـــرفهم بقـــدرهم لمـــا بغـــوا
فاشـــتغلوا بـــالظلم لـــيس مـــن عـــدل فاتخـــذوا أخـــذا وبـــيلا بالمهـــل
لمـــا نســـوا مـــا ذكـــروا بـــه خـــتم علـــى قلـــوبهم الله وانـــتقم
عتـــوا عتـــواً علـــى الخلـــق وجـــاروا فكـــل أكثـــر العبـــاد وبـــاروا[42]

اختلفت علاقة الشاعر الجزائري بالحاكم العثماني تبعا لحالة السلم والحرب، والتوافق والتنافر، ففي حالة السلم نجد الشاعر خاصة إذا كان من مقربي الباشا يفد عليه ويمدحه وينال العطايا منه، وفي حالة الحرب نجده يحرض الباشا على الحرب ويستنهض همته لخوض المعارك، أما إذا كان الحاكم ظالما متسلطا مستبدا فإنه ينقل لنا حالة الكره والرفض لهذا الحاكم، وهكذا نرى أن شخصية الحاكم العثماني في الشعر الجزائري القديم لم تخرج عن مظهرين أولهما صورة الحاكم العادل القائم بأمر المسلمين وقائد الجهاد وتتسم بالقوة والشدة على الأعداء والذكاء الحربي وثانيهما صورة الحاكم الظالم الجائر الذي انشغل عن أمور البلاد والعباد بتقوية مصالحه فكان جشعا محبا للمال متبعا للشهوات.

4- صورة الجندي العثماني:

كان الغزو والجهاد عاملا مهما في تأسيس الدولة العثمانية وتطورها، وكان مجتمع تلك الإمارات التركمانية المستقلة في الأناضول متشبع بفكرة الجهاد الدائم لتوسيع دار الإسلام و"كان الغزو الدائم يمثل واجبا دينيا يدفع المؤمنين إلى كل أشكال المخاطرة والتضحية. وفي تلك المجتمعات الحدودية كانت كل القيم الاجتماعية منسجمة مع المثل الأعلى للغزو"[43]، وفي الجزائر ارتبط الوجود العثماني منذ أول وهلة بالجهاد والحرب وتحرير الثغور، فقد عمل الإخوة بربروس في فترة مبكرة من التواجد العثماني على استعادة المناطق التي احتلها الإسبان مثل بجاية وجيجل وعنابة ومدينة الجزائر وتلمسان، في حين بقيت وهران والمرسى الكبير في قبضة الإسبان إلى فترة متأخرة، وهو ما سمح بظهور إنتاج أدبي غزير ارتبط بمحاولات فتح وهران، فقد حاول الكثير من الولاة العثمانيين تحرير وهران، لكن لم ينجح في ذلك إلا الداي محمد بكداش باشا سنة 1707م، والباي محمد بن عثمان الكردي سنة 1792م، وقد نتج عن هذين الفتحين الكبيرين مجد عسكري تليد، ونتاج أدبي خلد الأحداث وصور معارك التحرير، وأشاد بقادة الفتح.

ولم تخرج صورة الجندي العثماني في الشعر الجزائري القديم عن دائرة الجهاد، نظرا للدور التحريري الذي لعبه الجيش العثماني في الجزائر، وارتبطت أكثر القصائد التي صورت الجندي العثماني بحروب تحرير وهران من الاحتلال الإسباني، حيث نجد له حضورا كبيرا كلما ورد ذكر للحرب ووقائعها، قال أبو العباس أحمد بن عبد الله القاضي عن الجند العثماني يستنهض الهمم للجهاد وتحرير وهران، فقد شبه الجند العثماني بأمواج البحر عند تلاطمها دلالة على كثرة عدده وقوته الهائلة، فقد تقدم العثمانيون لتحرير وهران بجيش بري وبحري عظيم، ويبدو أن الأسطول العثماني بقيادة الرايس مراد قد شارك في المعركة:

وجند بني عثمان في كل قائد ... جيوش كموج البحر عند التلاطم
يريدون من وهران ما سبق القضا ... بتنفيذه للوقت في جفر عالم
يخوضون لجًّا في سفائن رائس ... مراد لدين الله عز الأعاجم[44]

وأورد الجامعي في شرحه لأرجوزة الحلفاوي قصيدة لأحد الطلبة الذين كان يتذاكر معهم علمي النحو والبيان، وفيها وصف للجيش العثماني الذي قاد الفتح الأول لوهران، شبه الشاعر الجند العثماني بالأسود الضارية في البر والبحر إشارة إلى شجاعتهم وقدرتهم على دحر العدو في المعارك البرية والبحرية، وقد عز الإسلام بهم لأنهم جعلوا الجهاد في سبيل الله شغلهم الشاغل، غيرة منهم على الإسلام ورغبتهم في الشهادة في سبيل الله:

سلام على الجند المؤيَّد بالنصر ضراغم خلق الله في البر والبحر
جيوش بها الإسلام عز منالـه فأصبح دين الله مبتسم الثغر
فما شغلهم إلا الجهاد جزاهم إله الورى خيرا يفوق على الحصر
هم منعوا الإسلام من كل صائل هم قصموا الأعداء بالبيض والسمر
هم خربوا دار الصليب ومزقوا لحوم العدا للوحش والطير والقفر
وأحيوا رسوم الدين بعد اندراسها وغاروا على الدين القويم من الكفر[45]

وإذا كانت شجاعة الجند العثماني وبسالته في حروب تحرير وهران قد لفتت انتباه الشاعر الجزائري واستفزت قريحته الأدبية، فإن حروب الدولة العثمانية خارج الجزائر قد شغلت كذلك الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري الذي أشاد بجهود السلطان عبد المجيد والجيش العثماني في حرب القرم، وصف فيها شجاعة آل عثمان وعلو كعبهم في الجهاد وقد بذلوا النفس والنفيس في سبيل الجهاد وإعلاء كلمة الحق، كما يدعوا للجيش العثماني بالثبات والنصر ويصفه بالشجاعة والإقدام وأن سيوفه لماعة كناية على كثرة استخدامها فهو جيش لا يكل ولا يمل عن الحروب في سبيل الله، فالجندي العثماني شجاع مقدام لا يهاب الموت فهو يقدم على الحروب بقوة ظاهرة وعقيدته في الجهاد ثابتة كالجبال الشامخة، وهم في قوتهم وبأسهم كالأسود الضارية إذا غضبت، وقد أدهشت شجاعتهم وبطولتهم جيش العدو:

الباذلون بيوم الحرب أنفسهم لله ! كم بذلوا نفسا وأبدانا
والضاربون ببيض الهند مرهفة تخالها في ظلام الحرب نيرانا
والطاعنون بسمر الخط عالية إذ العدو رآها شرعت بانا
جيش إذا صاح صياح الحروب لهم طاروا إلى الموت فرسانا ورجلانا
هم الليوث ليوث الغاب غاضبة والليث لا يلتقى إن كان غضبانا
الدافعون عن الإسلام كل أذى بأنفس قد غلت قدرا وأثمانا
كم غمة كشفوا؟!كم كربة رفعوا؟! وكم أزاحوا عن الإسلام عدوانا؟! [46]

يشير الشاعر إلى الحمية والغيرة على الإسلام لدى الجندي العثماني فهو يقاتل حماية للدين الإسلامي ودفاعا عن أرض الإسلام، فكم من نصر أحرزوه ورفعوا به عن المسلمين قهرا وظلما كان قد فرض عليهم، ثم يدعوا الله متوسلا بأهل بدر بأن ينصر المسلمين على الروس كما نصرهم في يوم بدر على الكفار، احتشد الشعر الجزائري القديم بوصف حروب الدولة العثمانية في الجزائر وتصوير انتصارات جنودها

ووصف جيوشها وقوادهم وأسلحتهم، ولم تخرج صورة الجندي العثماني في الشعر الجزائري القديم عن صورة المجاهد المقدام، الشجاع الذي يضحي بنفسه لإعلاء كلمة الله، فهو نموذج للقوة والجهاد والشجاعة.

سعت هذه الدراسة إلى استجلاء أشكال صورة العثماني في الشعر الجزائري القديم، فقد كان للعثماني حضور واضح في الشعر الجزائري القديم.

-لم تخرج صورة السلطان العثماني عن كونه أميرا للمؤمنين وخليفة رسول رب العالمين وسلطان البرين والبحرين وخادم الحرمين الشريفين.

-يظهر شيخ الإسلام في الدولة العثمانية أو المفتي العام في صورة العالم الجليل واسع العلم، عظيم الحلم، دقيق الفهم للمسائل الصعبة، فهو الواسطة بين السلطان والرعية وجاءت صورة المفتي العثماني في الجزائر قاتمة وارتبطت بصورة المفتي ابن زاغو التلمساني الذي ساعد أتراك تلمسان بفتواه الجائرة التي أجازت لهم قتل أعيان تلمسان وتشريد ذراريهم، فهو ظالم فاسق يحكم بغير ما أنزل الله ليرضي أولياء نعمته.

-تراوحت صورة الحاكم العثماني في الجزائر بين الثناء والذم، ارتبطت الصورة الأولى بحروب تحرير الثغور الجزائرية من الاحتلال الإسباني خاصة بعد الدور الذي لعبه هؤلاء في تحرير وهران، فظهر أبطال هذه الحروب في صورة المجاهد الذي يسعى لطرد المستعمر وتحرير المدن الجزائرية، وزخر الشعر الجزائري القديم بمدح هؤلاء والإشادة بهم وببطولاتهم مثل الأمير حسن بن خير الدين بربروس قائد معركة مازغران ومحمد بكداش باشا قائد التحرير الأول لوهران والباي محمد بن عثمان الكردي صاحب التحرير النهائي لوهران، وبينت الصورة الثانية ظلم وجور بعض الحكام والباشاوات الذين سخروا قدرات الشعب الخاضع لهم لخدمة مصالحهم الخاصة، فأثقلوا كاهل الشعب وشددوا الوطأة عليه بزيادة الضرائب فهو حاكم ظالم جائر متعسف.

-ارتبطت صورة الجندي العثماني بالجهاد، وارتبطت أكثر القصائد التي صورت الجندي العثماني بحروب تحرير وهران، فهو نموذج للقوة والشجاعة والإقدام.

الهوامش والإحالات:

[1]- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، دار البصائر، الجزائر، 2007، ص137-138

[2]- عبد المجيد حنون: صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغاربية، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2013، ص62

[3]-دانيال هنري باجو: الأدب العام والمقارن، ترجمة غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق،1997،ص-ص92، 93

[4]- عبد المجيد حنون: صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغاربية، ص 53

[5]-دانيال هنري باجو: الأدب العام والمقارن، ص98

[6]- بيير برونيل وأ.م.روسو وكلود بيشوا: ما الأدب المقارن؟، ترجمة عبد المجيد حنون وآخرون، منشورات مخبر الأدب العام والمقارن، جامعة باجي مختار، عنابة، 2005، ص 108

[7]- دانيال هنري باجو: الأدب العام والمقارن، ص90.

[8]- عبد المجيد حنون: صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغاربية، ص 57

[9]- ريمون طحان: الأدب المقارن والأدب العام، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1972، ص 61

[10]- دانييل هنري باجو الأدب العام والمقارن، ص91

[11]- ماجدة حمود: مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000، ص108

[12]- أكمل الدين إحسان أوغلي: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ترجمة صالح سعداوي، منشورات مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول (إرسيكا)، استانبول، 1999، ص8

[13]- يلماز اوزتونا: موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية السياسي والعسكري والحضاري، ترجمة عدنان محمود سلمان ومحمود الأنصاري، المجلد الرابع، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط1، 2010، ص 83

[14]- أحمد بن عمار: مختارات مجهولة من الشعر العربي، تقديم وتعليق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 2005، ص 140

[15]- يذكر أبو القاسم سعد الله أن هذا البيت ناقص في المخطوط الذي رجع إليه، لكنه أثبته لحضور اسم الجزائر فيه ولاحتوائه على معنى خاص، ونحن نورده أيضا لارتباطه بما يليه، ينظر؛ أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج3، عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص205

[16]- الخنكار(hünkar) كلمة تركية تعني السلطان العثماني، وهي كلمة محرفة من كلمة أونكار التركية والأويغورية وتعني صاحب الحظ والموفق، ومع أن العثمانيين استخدموا لفظ السلطان والحاكم وغيرهما من التعابير في غير سلاطين الدولة العثمانية إلا أنهم لم يستخدموا لفظ خنكار إلا للسلاطين العثمانيين، ينظر؛ سهيل صابان: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2000، ص 105

[17]- أحمد بن عمار: مختارات مجهولة من الشعر العربي، ص140

[18]- محمد بن ميمون الجزائري: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تحقيق محمد بن عبد الكريم، سحب الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007، ص237

[19]-إسماعيل أحمد ياغي: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، منشورات مكتبة العبيكان، الرياض، 1996، ص62

[20]-الأمير عبد القادر الجزائري: ديوان الأمير، جمع وتحقيق العربي دحو، منشورات ثالة، الجزائر، ط3، 2007، ص 90

[21]- أكرم كيدو: مؤسسة شيخ الإسلام في الدولة العثمانية، ترجمة هاشم الأيوبي، منشورات جَروس برس، طرابلس-لبنان، ط1، 1992، ص 65

[22]- المرجع نفسه، ص45

[23]- يلماز اوزتونا: موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية السياسي والعسكري والحضاري، المجلد الربع، ص 461

[24]- أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج3، ص200

[25]-هو محمد بن حسن جان المدعو سعد الدين بن حسن جان التبريزي القسطنطيني، مربي السلطان مراد الثالث(خوجاه) ومربي ابنه السلطان محمد، مفتي السلطنة العثمانية، عين شيخا للإسلام عام 1597م في عهد السلطان أحمد خان الأول، اشتهر بإتقانه اللغة

العربية كأنه عربي قح، توفى سنة 1008هـ-1599م، ينظر؛ نجم الدين محمد بن محمد الغزي الدمشقي: لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر، ج2، تحقيق محمود الشيخ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، دت، ص 154

[26]- أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج3، ص201

[27]- هو أسعد بن سعد الدين بن حسن جان التبريزي الأصل القسطنطيني المولد والوفاة، مفتي التخت العثماني، كان عالما محققا متبحرا في العلوم، طويل الباع واتفق أهل عصره أنه لم يكن له نظير فيه فضلا وديانة وإتقانا ونفاسة، تولى مشيخة الإسلام أكثر من مرة، توفي سنة 1034هـ/1626م، ينظر؛ محمد أمين بن فضل الله المُحِبيّ: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج1، المطبعة الوهيبية، 1284هـ، ص 396

[28]- أحمد بن عمار: مختارات مجهولة من الشعر العربي، ص 147 - 149

[29]- هو أبو سعيد بن أسعد بن محمد سعد الدين ابن حسن جان القسنطيني المولد والمنشأ والوفاة مفتي السلطنة العثمانية وهو ابن شيخ الإسلام أسعد أفندي وقد تولى مشيخة الإسلام عدة مرات، وهو الأديب الشاعر الذي ولي قضاء دمشق ودخلها في 16 محرم 1031هـ ولما عزل منها رحل إلى الروم في 26 شوال من السنة المذكورة وتوفي في سنة 1073هـ/1661م ينظر؛محمد أمين بن فضل الله المُحِبيّ: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج1، ص 127

[30]- أحمد بن عمار: مختارات مجهولة من الشعر العربي، ص138

[31]- أحمد برناز: الشهب المحرقة لمن ادعى الاجتهاد لولا انقطاع من أهل المخرقة، تحقيق الطاهر المعموري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص314

[32]- أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم المهدي بوعبدلي، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، سلسلة التراث1، الجزائر، 1973، ص56

[33]- المصدر نفسه، ص 439

[34]- نفسه، ص 15

[35]- نفسه، الصفحة نفسها

[36]- محمد بن ميمون الجزائري: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، ص182-183

[37]- أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، ص 276

[38]- نفسه، ص59

[39]- محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2013، ص 168

[40]- محمد قاضي: الكنز المكنون في الشعر الملحون، تقديم أحمد أمين دلاي، منشورات مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، الجزائر، 2007، ص 178

[41]- أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، ص 57

[42]- مسلم عبد القادر الوهراني: تاريخ بايات وهران المتأخر أو أنيس الغريب والمسافر، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص 121

[43]- خليل اينالجيك: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة محمد الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2002، ص 15

[44]- محمد بن ميمون الجزائري: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، ص 299-300

[45]- المصدر نفسه، ص 283

[46]- الأمير عبد القادر الجزائري: ديوان الأمير، ص92

قائمة المراجع:

1-أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج3، عالم المعرفة، الجزائر، 2009.
2-أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، دار البصائر، الجزائر، 2007.
3-أحمد برناز: الشهب المحرقة لمن ادعى الاجتهاد لولا انقطاع من أهل المخرقة، تحقيق الطاهر المعموري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990.
4-أحمد بن عمار: مختارات مجهولة من الشعر العربي، تقديم وتعليق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 2005.
5-أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم المهدي بوعبدلي، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، سلسلة التراث1، الجزائر، 1973.
6-إسماعيل أحمد ياغي: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، منشورات مكتبة العبيكان، الرياض، 1996.
7-أكرم كيدو: مؤسسة شيخ الإسلام في الدولة العثمانية، ترجمة هاشم الأيوبي، منشورات جَروس برس، طرابلس-لبنان، ط1، 1992.
8-أكمل الدين إحسان أوغلي: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ترجمة صالح سعداوي، منشورات مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول (إرسيكا)، استانبول، 1999.
9-بير برونيل وأ.م.روسو وكلود بيشوا: ما الأدب المقارن؟، ترجمة عبد المجيد حنون وآخرون، منشورات مخبر الأدب العام والمقارن، جامعة باجي مختار، عنابة، 2005.
10-خليل اينالجيك: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة محمد الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2002.
11-دانيال هنري باجو: الأدب العام والمقارن، ترجمة غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق،1997.
12-ريمون طحان: الأدب المقارن والأدب العام، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1972.
13-عبد المجيد حنون: صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغاربية، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2013.
14-ماجدة حمود: مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000.
15-محمد بن ميمون الجزائري: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تحقيق محمد بن عبد الكريم، سحب الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007.
16-محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2013.
17-محمد قاضي: الكنز المكنون في الشعر الملحون، تقديم أحمد أمين دلاي، منشورات مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، الجزائر، 2007.
18-مسلم عبد القادر الوهراني: تاريخ بايات وهران المتأخر أو أنيس الغريب والمسافر، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974.
19-يلماز اوزتونا: موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية السياسي والعسكري والحضاري، ترجمة عدنان محمود سلمان ومحمود الأنصاري، المجلد الرابع، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط1، 2010.